الفصل الخامس
نظرة الإسلام إلى عالم الفلك وبعض ظواهره

حديث القرآن عن منافع النجوم ووظائفها:

في الكتاب العظيم كلام متكرر عن النجوم، وهو يشير باستمرار إلى كونها من آيات الله العظام، في خلقها وكبرها، وسيرها وانتظام أمرها...

والنجوم، بعض خلق الله تعالى، ذكرها في كتابه، وامتن بها على عباده، وأشار إلى جملة من فوائدها، ونبه على الحكمة في خلقها.

وقد فهم قتادة رحمه الله تعالى، وهو تابعي جليل يغلب عليه الاشتغال بالتفسير الذي أخذه عن عبد الله بن عباس حبر الأمة... فهم هذه الحكمة، فبينها في كلام جليل تناقله العلماء ورده المفسرون في كتبهم، حتى لا يكاد يخلو منه كتاب في التفسير[١]. قال: «إنما خلق الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوما للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد أخطأ حظه، وقال برأيه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. وإن أناسا جهلة بأمر الله تعالى قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا...»[٢].

---

(١) رواه الطبري مختصرا في جامع البيان، ٢٩/ ٣، سورة الملك.و ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز، ١٦/ ٦٢، في السورة نفسها. وابن كثير في تفسيره، ٢/ ٢٠٢، الأنعام آية ٩٧؛ ٣/ ٤٦١، النمل ٦٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/ ١٣٨، الملك. والبقاعي في نظم الدرر، ٧/ ٢٠٣. أما قتادة بن دعامة الدوسي فتابعي كبير في التفسير والحديث والعربية، وكان ضريرا. توفي سنة ١١٨هـ ، الأعلام، ٦/ ٢٧.

(٢) تمام الخبر بعد قليل. وقد رواه الطبري في تفسيره، ٢٩/ ٣. والخطيب في القول في علم النجوم، ص ١٨٧.

ولنفصل الآن الكلام في هذه الفوائد والحكم من خلق النجوم:

١ ـ خلق الله تعالى النجوم رجوما للشياطين:

قال تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ الآية الخامسة. وقد قيل في تفسير كون الكواكب رجوما للشياطين: إنا جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون[١]. لكن في الأحاديث الصحيحة أن الشياطين ترمى بشهب ـ هي كواكب أو شعل منها ـ لما تحاول الصعود إلى السماء وتلقف أخبار المستقبل. وهذا نص القرآن أيضا في مواضع متعددة[٢]. وكل هذا سبق لي أن فصلته في كتابي عن الكهانة فلا أعيده هنا.

٢ ـ الوظيفة الجمالية للنجوم:

وقد نص عليها القرآن في مواضع: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ ق، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ الحجر ١٦. ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ الصافات ٦. والمعنى: «زينا السماء بتزيين الكواكب، أي بحسن الكواكب»[٣]، فالكواكب جميلة في نفسها، وتضفي على السماء جمالا آخر. يقول سيد قطب ـ ولا أفضل من الأديب يشرح مثل هذا الأمر ـ: «ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة؛ ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق؛ وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء. فكل شيء فيه بقدر، وكل شيء فيه يؤدي وظيفته بدقة؛ وهو في مجموعه جميل.

والسماء، وتناثر الكواكب فيها، أجمل مشهد تقع عليه العين. ولا تمل طول النظر إليه. وكل نجمة توصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره؛ وكأنه عين محبة تخالسك النظر؛ فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت؛ وإذا أنت التفت

---

(١) الكشاف، ٤/١٣٦. مفاتيح الغيب، ٣٠/٦١.

(٢) منها: الحجر، آيات ١٦ إلى ١٨. الصافات، ٦ إلى ١٠. فصلت ١٢. سورة الجن.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/٤٤. وقراءة الجمهور بجر الكلمتين على الإضافة.

عنها أبرقت ولمعت! وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآنا بعد آن متعة نفسية لا تملها النفس أبدا!»[١].

وهذه اللفتة إلى جمال السماء «تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون. فليست الضخامة وحدها، وليست الدقة وحدها، إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعا، وينشأ من تناسقها جميعا»[٢].

وبينما يدعونا سيد قطب فقط إلى التفرج على السماء، وخصوصا بالليل، فإن الفخر الرازي ـ على عادته رحمه الله تعالى ـ لا بد أن يبين كيف تكون الكواكب زينة للسماء، فذكر في ذلك وجوها: الأول أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها، وضوء الكواكب هو جمالها وجمال السماء الذي ينعكس فيها. الثاني: يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها. الثالث: يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوع الكواكب وغروبها. الرابع: إن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر[٣].

وكل هذه الوجوه واردة، بل توجد غيرها، فإن في منظر السماء في صفاء الليل جمالا أخاذا لا تجد له مثيلا في صور الجمال التي نعرف، والعلم يكتشف كل يوم من عجائب السماوات وأفلاكها ما يدهش العقل ويملأ القلب جلالا وروعة. ولكنها العادة ـ هذا السلاح الخطير ـ التي تجعل الإنسان لا يتحرك لجمال السماء وزينة الكواكب.

٣ ـ الاهتداء بالنجوم:

قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الأنعام ٩٧ .

يقول الطبري: المعنى «والله الذي جعل لكم أيها الناس النجوم أدلة في البر

(١) في ظلال القرآن ، ٧/ ٤٧ ـ ٤٨. الصافات ٦.

(٢) في ظلال القرآن ، ٥/ ١٩٦. الحجر ١٥.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٢١ ، الصافات ٦.

والبحر إذا ضللتم الطريق أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها»[١]. وقال القاضي ابن عطية: «هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، فالحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة. وجعل هنا بمعنى خلق.. و ﴿فِي ظُلُمَٰتِ﴾، هي هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس»[٢]. فهذا معنى الآية، لا أن النجوم يهتدى بها في علم الغيب، كما يعتقد المنجمون[٣]. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا الاهتداء بالنجوم علم يحتاج إلى معرفة بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها[٤]. فهذا الاهتداء علم أو يتوقف على علم.

وقد امتن الباري جل وعلا على الناس بأن جعل لهم في الأرض والسماء ما يعرفون به طريقهم إذا احتاروا وضلوا، فقال مبتدئا بذكر نعمة البحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ النحل، ١٤ إلى ١٦ .

وجملة ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، وهي الجبال. قال الرازي: «والتقدير: وألقى في الأرض سبلا. ومعناه أنه تعالى أظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم... واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أظهر في الأرض سبلا معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده، فقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾، وهي أيضا معطوفة على قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾، والتقدير: وألقى في الأرض رواسي وألقى فيها أنهارا وسبلا وألقى فيها علامات»[٥].

ثم اختلف أهل التفسير في المقصود بالعلامات، فقال ابن الكلبي هي الجبال،

---

(١) جامع البيان، ٧/ ١٧٤. وانظر معالم التنزيل، ٣/ ١٧١.

(٢) المحرر الوجيز، ٦/ ١١٦.

(٣) فتح المجيد، ص ٣٠٥.

(٤) في ظلال القرآن، ٣/ ٣٢٢.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١١.

وقال إبراهيم النخعي ومجاهد: هي النجوم. وعند ابن عباس رضي الله عنه: العلامات معالم الطرق بالنهار، والنجوم هداية الليل[١]. قال ابن عطية: «والصواب إذا قدرنا الكلام غير معلق بما قبله أن اللفظة تعم هذا وغيره، وذلك أن كل ما دل على شيء وأعلم به فهو علامة. وأحسن الأقوال المذكورة قول ابن عباس رضي الله عنه، لأنه عموم في المعنى، فتأمله»[٢]. ولذلك قال الزمخشري: العلامات «معالم الطرق، وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل، وغير ذلك»[٣].

وإنما يكون الانتفاع بمثل هذه العلامات في النهار، أما في الليل فالغالب أنه لا ينتفع بها، ولذلك ذكر الله تعالى النجم وقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. قال ابن عاشور: «هذه منة بالاهتداء في الليل، لأن السبيل والعلامات إنما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلا؛ فمواقع النجوم علامات لاهتداء الناس السائرين ليلا تعرف بها السماوات، وأخص من يهتدي بها البحارة لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة، فهم مضطرون إلى السير ليلا، وهي هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر، ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ تقديما يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي في قوله تعالى ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾»[٤].

والمراد بالنجم عند الجمهور: الجنس[٥]. وقال الفراء: المقصود هو الجدي والفرقدان. وقيل: النجم هنا هو القطب[٦]. وقيل الثريا، وقيل غير ذلك[٧]. وصحح ابن عطية مذهب الجمهور[٨].

والظاهر الإطلاق، فإن النجوم كثيرة، وما يهتدى به منها كثير، ولا يزال

---

(١) راجع: المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧٠. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٦١.

(٢) المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧٠.

(٣) الكشاف، ٢/ ٤٠٤.

(٤) التحرير والتنوير، ١٤/ ١٢٢.

(٥) انظر الكشاف، ٢/ ٤٠٤.

(٦) المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧١. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٦١. إرشاد العقل السليم، ٣/ ١٦٧. التحرير و التنوير، ١٤/ ١٢٢.

(٧) أحكام القرآن، لابن العربي، ٣/ ١٢٨. مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١١.

(٨) المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧١.

الإنسان يكتشف كل يوم نجما جديدا قد يعينه على شيء، فهو يهديه. أما استفادة الناس من هذه النجوم في الاهتداء فأمر جد متفاوت، لذلك يقول ابن العربي بعد أن حكى الأقوال المتقدمة: «فأما جميع النجوم فلا يهتدي بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والمفرق بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخرين. وأما الثريا فلا يهتدي بها إلا من لا يهتدي بجميع النجوم. وإنما الهدي لكل أحد بالجدي والفرقدان، لأنهما من النجوم المنحصرة المطلع، الظاهرة السمت، الثابتة في المكان»[١].

وكذلك فإن الاهتداء بالنجوم يكون في البر والبحر، كما في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. قال السرازي: ومن المفسرين «من قال قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مختص بالبحر، لأنه تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم. ومنهم من قال: بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر. وهذا القول أولى، لأنه أعم في كونه نعمة، ولأن الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معا»[٢].

وظاهر الآية يفيد أن الاهتداء بالنجوم يكون في الأسفار، وهو قول الجمهور. وقيل يهتدى بها في تحديد القبلة[٣]. وسياق الآية يقوي القول الأول، لكن لا يبعد أن يشمل عموم اللفظ القولين معا، فلا تعارض بينهما.

وقد قيل إن الآية امتنان على قريش، فقد «كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا»[٤]. والصحيح العموم، فإن الحاجة إلى الاهتداء في الطريق والاستفادة بالنجوم والعلامات... أمر عام في البشرية، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ولذلك يقول سيد قطب: «﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾... ومتاهات البر والبحر ظلمات يهتدي فيها البشر بالنجوم. كانوا كذلك وما يزالون. تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة.

---

(١) أحكام القرآن، ٣/ ١٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١١ ـ ١٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٦١.

(٤) الكشاف، ٢/ ٤٠٥.

وتبقى القاعدة ثابتة: قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام في ظلمات البر والبحر. سواء في ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر. ويبقى النص القرآني الجامع يخاطب البشرية في مدارجها الأولى بهذه الحقيقة، فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله»[١].

وها هو الإنسان الذي لم يعد يسافر فقط في بر الأرض وبحرها، بل أيضا في الفضاء وعبر الكواكب.. يستهدي بالنجوم ويستعين بها. وربما ليس بعيدا ذلك اليوم الذي سيسافر فيه الإنسان إلى خارج مجموعتنا الشمسية، حين يأذن الله تعالى بذلك، وسيجد في طريقه أن النجوم هي من يرسم له الطريق، ذهابا وإيابا.

ولما كانت هذه المنة من أعظم المنن على البشر وأجلها، قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

منافع النجوم غير منحصرة:

وصنيع بعض المفسرين بحصر هذه الفوائد في ثلاثة.. ظاهر لا يؤخذ به حرفيا. وقد تقدم أن أول من قصر فوائد النجوم على الثلاثة المذكورة هو قتادة، ثم تبعه على ذلك مفسرون كثر، فقال ابن عطية ـ بعد ذكره للمنافع الثلاثة ـ : «الواجب أن يعتقد أن ما عدا هذه الوجوه من قول أهل التأثير باطل واختلاق على الله وكفر به»[٢].

وفي ظني لم يقصد قتادة الحصر الحقيقي، بل كان مراده الرد على المنجمين الذين يتصورون للنجوم وظائف ما أنزل الله بها من سلطان، فنبه على أن في القرآن الكريم ذكرا لفوائد النجوم ـ وهي ثلاثة فيما انتهى إليه علمه ـ ، وليس بينها ما يدعيه أصحاب التنجيم. وكلام قتادة يشعر بهذا الذي قلته، ولذلك أنقله للقارئ بطوله: «إن الله ـ تعالى ـ إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها نهتدي بها، وجعلها رجوما للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد أخطأ حظه، وقال رأيه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناسا جهلة

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ٣٢١. الأنعام ٩٧. أو يكون الامتنان أولا على قريش، لأنهم المخاطبون بالوحي في البداية، ثم يكون على الناس جميعا لعموم اللفظ.

(٢) المحرر الوجيز، ٦/ ١١٦. الأنعام ٩٧.

بأمر الله ـ تعالى ـ قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من النجوم نجم إلا يولد به الطويل والقصير، والأحمر والأبيض، والحسن والذميم. وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله ـ تعالى ـ أنه ﴿لَا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

ولعمري لو أن أحدا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله ـ تعالى ـ بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، فأكل منها رغدا حيث شاء، ونهاه عن شجرة واحدة، فما زال به البلاء حتى وقع بما نهي عنه، ولو كان أحد يعلم الغيب لعلمه الجن حين مات نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ . . . »[١]

وهذه الجمل ـ كما قال ابن كثير ـ كلام جليل متين صحيح[٢]. وكذا قال محمد بن كعب القرظي المفسر: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا، ويتخذون النجوم علة[٣].

ولذلك حين تعرض الرازي لشرح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ ذكر أن منافع النجوم كثيرة، منها ـ غير الثلاثة التي تقدمت ـ أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء. . وهي مسؤولة أيضا عن تفاوت في أحوال الفصول الأربعة.[٤]. ثم كما «يمكن أن يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر، فكذلك يمكن أن يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه»[٥]. قال الرازي: «وذلك لأن هذه الكواكب نظرا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص، وموضع معين، وسير معين، تدل على أن صانعها قادر. ونظرا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا، وسببا لانتفاعهم بها، تدل على أن صانعها عالم»[٦].

---

(١) هذا لفظ الخطيب أورده في « القول في علم النجوم»، ص ١٨٥ ـ ١٨٦. وله تتمة لم أذكرها، لأنها استطراد لانحتاجه هنا.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ٤٦١. النمل ٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/ ١٣٨. الملك آيات ٧ إلى ١١.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦١. الملك.لا أناقش النص من حيث صحته العلمية، بل غرضي أن أثبت أن بعض المفسرين رأوا في النجوم غير الفوائد الثلاثة التي ذكرها قتادة.

(٥) مفاتيح الغيب، ١٣/ ١٠٧. الأنعام ٩٧.

(٦) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٠، الملك.

والاهتداء بالنجوم اهتداء «في الظلمات الحسية الواقعية، وفي ظلمات العقل والضمير. والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم»[١].

ولبعض الكواكب، خصوصا الشمس والقمر، وظيفة أخرى هي حساب الزمن على أساس دوراتها وحركاتها، كما قال ابن أبي الرجال في منافع النجوم:

منها علامات بفضل الباري ... يهدى بها في الليل والنهار

والشمس والبدر له حسبان ... تحصى بها السنون والأزمان[٢]

والقرآن حين يذكر للنجم وظيفة أو فائدة، فليس للحصر، بل بحسب ما يقتضيه السياق. قال أبو السعود ـ في قول الباري: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ ـ: «التقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم، لكن لا على أن غاية خلقها اهتداؤهم فقط، بل على طريقة إفراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر حسبما يقتضيه المقام»[٣].

ولذلك يقول جمال الدين القاسمي، عالم الشام ومحدثها في زمنه: «قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه. .أقول: مراده اعتقاد مناف للعقد الصحيح لا اعتقاد حكم وأسرار غير الثلاث فيها، إذ فوائد المكونات غير محصورة، وذكر حكمة في مكون لا ينفي ما عداها، فافهم!»[٤].

عظمة النجوم، وقسم الله بها:

يقول الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ غافر ٥٧ .

قال ابن القيم في الآية: «لا ريب أن خلق السماوات والأرض من أعظم الأدلة

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ٣٢٢. الأنعام ٩٧.

(٢) منظومة في التنجيم، مخطوط، ص ٢٣١. ولعل هذا البيت من الحق القليل في هذا النظم.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٤) محاسن التأويل ، ٦/ ٢٤٣٢، الأنعام ٩٧.

على وجود فاطرهما وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية. . .والله سبحانه إنما يدعو عباده إلى النظر والفكر في مخلوقاته العظام لظهور أثر الدلالة فيها وبديع عجائب الصنعة والحكمة فيها واتساع مجال الفكر والنظر في أرجائها»[١].

ولذلك ذكر الله سبحانه النجوم والكواكب في مواضع متعددة، وأقسم بها. قال تعالى في سورة التكوير: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩﴾، آيات ١٥ إلى ١٩ . والخنس الجوار الكنس هي النجوم في أحد قولين[٢]. والمعنى أنها تخنس بالنهار وتختفي، وتظهر بالليل. وقيل هي الكواكب السبعة[٣]. وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى، وسماها القرآن خنسا لأنها في سيرها تتقدم إلى جهة المشرق، ثم تخنس، أي تتأخر، وكنوسها استتارها في مغربها. ولذلك تسمى هذه الكواكب بالمتحيرة، فهي تسير مستقيمة وراجعة[٤].

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾[٥]، وفي سورة الواقعة: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ آيات ٧٥ إلى ٧٨ .

وقد ذكر المفسرون في معنى المواقع أقوالا[٦]:

١ ـ المواقع هي المشارق والمغارب، أي أماكن طلوع الكواكب وغروبها، فإن عندها سقوط النجوم.

٢ ـ مواقع النجوم بروجها ومنازلها، وهي مواضعها في السماء.

٣ ـ مواقعها في اتباع الشياطين.

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ، ٤/٥٦٦.

(٣) القول في علم النجوم، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٠.

(٥) راجع في تفسير الآية: الجامع لأحكام القرآن ، ١٧/ ٥٥ إلى ٥٧. مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٦) مفاتيح الغيب،٢٩/ ١٨٩. الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ١٤٥. المفهم، ١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢. حديث النوء. مفتاح دار السعادة، ص ٥١٢. فتح المجيد، ص ٣١٥

٤ ـ هو انكدارها وانتثارها يوم القيامة.

٥ ـ المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما، أي أجزاء إلى السماء الدنيا، ومنها إلى النبي ﷺ.

٦ ـ الأنواء.

قال الطبري: »وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك: فلا أقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء، وذلك أن المواقع جمع موقع، والموقع المفعل من وقع يقع موقعا، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك«[١].

وهذا أيضا رأي الزمخشري، وذكر القول الثاني ـ البروج والمنازل ـ احتمالا. قال: «﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاربها، ولعل لله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة، أو للملائكة عبادات موصوفة، أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم، فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾، أو أراد بمواقعها منازلها ومسايرها. وله تعالى في ذلك من الدليل على عظمة القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف«[٢].

وقد تابعه النسفي على القول الأول[٣]، أي المواقع هي المغارب، ونسبه النووي إلى الجمهور[٤]. فالظاهر إذن أن معنى المواقع: مغارب النجوم، أو بروجها ومنازلها.

ثم يقول تعالى ذكره: وإن هذا القسم الذي أقسمت لقسم ـ لو تعلمون ما هو وما قدره ـ عظيم. وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عظمه[٥].

---

(١) جامع البيان، ٢٧/ ١٠٥.

(٢) الكشاف، ٤/ ٥٨.

(٣) مدارك التنزيل، ٤/ ٢٢٠.

(٤) المنهاج، شرح صحيح مسلم، ٢/ ٥٤، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

(٥) جامع البيان، ٢٧/ ١٠٥.قوله تعالى (لا أقسم): للمفسرين في تأويله طريقان:

=

وجواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝﴾، كأنه قال: فلا أقسم بمواقع النجوم، إن هذا القرآن لقرآن كريم[١]. واستظهر الرازي أن المقسم عليه هو أمر التوحيد والحشر[٢].

ويكفي لإدراك عظمة القسم مشاهدة السماء، وخصوصا بالليل، لكن لا ريب أن العلم يساعد أكثر على هذا الإدراك، ولذلك لم يكن المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل الذي يدركونه بعيونهم، فأما «نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به، نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون. وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم.

وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة، المحدودة المناظير، يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا، مجموعة واحدة ـ هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية ـ تبلغ ألف مليون نجم!

ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه. هذه كلها تسبح في الفلك الغامض؛ ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب

= الأول: وهو قول الأكثر، لا: صلة، وهي مزيدة ومؤكدة. والمعنى: فأقسم، بدليل قوله في الآية نفسها: (وإنه لقسم)، وبدليل قراءة الحسن البصري وغيره: فلأقسم، بمعنى فلأنا أقسم بذلك. راجع الكشاف، ٤/ ٥٨. الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ١٤٤.

الثاني: لا نافية، والمعنى لا أقسم على هذا الأمر لوضوحه وظهوره، فهو أوضح من أن يحتاج إلى قسم أو تأكيد. انظر مفاتيح الغيب، ٢٩/ ١٨٧.

(١) جامع البيان، ٢٧/ ١٠٥. وانظر الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ١٤٥. وفي فتح المجيد، صفحة ٣١٦: «المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن ـ من وجوه.. إن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية. فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة. وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس. والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول».

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ١٩١.

آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة. وهو احتمال بعيد، وبعيد جدا، إن لم يكن مستحيلا .

وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع إخوته، قد وضع هناك بحكمة وتقدير. وهو منسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب، لتتوازن هذه الخلائق كلها في هذا الفضاء الهائل.

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم، وهو أكبر كثيراً جدا مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة. وهو في الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم!»[١].

وقد حدثني صديق لي باحث في علم الإحياء ـ البيولوجيا ـ أنه يوجد فرق هام وواضح بين علماء الفلك وعلماء البيولوجيا، فالأكثرية الساحقة للفلكيين تؤمن بالله سبحانه، والإلحاد فيهم نادر. بينما اللادينيون في علماء البيولوجيا الغربيين كثر. وهو فسر ذلك بأن علماء الفلك يدرسون النجوم والأفلاك، ويستعملون المراصد، والزمان والمكان الفلكيان هائلان، فيرون آثار عظمة الخالق فتمتلأ قلوبهم إجلالاً له، ولذلك قلما يوجد فيهم ملحد. بينما البيولوجي يتعامل مع مادة محدودة في الزمان والمكان، وهي بين يديه يدرسها ويقلبها كيف يشاء، وهذا يعطيه إحساساً بالسيطرة على المادة والتحكم فيها، ولذلك يسقط في الإلحاد أو اللادينية أو ما شابه ذلك. فسبحان القائل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وكما أقسم الله تعالى بالنجوم ومواقعها على العموم، فإنه سبحانه يقسم أحيانا بنجم واحد، أو مخصوص، كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾، أول سورة الطارق. والطارق وصف مشتق من الطروق، وهو المجيء ليلا، فكل ما أتاك ليلا سواء كان كوكبا أو غيره فهو طارق[٢]. قال ابن عاشور: «وأبهم الموصوف بالطارق ابتداء، ثم زيد إبهاما مشوبا بتعظيم أمره بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾. ثم بين بأنه ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ ليحصل من ذلك مزيد

(١) في ظلال القرآن، ٧/ ٧٠٦.

(٢) مفاتيح الغيب، ٣١/ ١٢٧. التحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٥٨.

تقرر للمراد بالمقسم به، وهو أنه من جنس النجوم شبه طلوع النجم ليلاً بطروق المسافر الطارق بيتا بجامع كونه ظهورا في الليل»[١].

والثقب خرق شيء ملتئم، وهو هنا مستعار لظهور النور في خلال ظلمة الليل[٢]. ولذلك قال ابن عباس: الثاقب المضيء. واعتبر بعضهم أن النجم المقصود هو الشهاب الذي يرسل إلى

الشياطين[٣]، لأن «الشهاب ينقض فيلوح كأنه يجري في السماء، كما يسير السائر إذا أدركه الليل»[٤]. وقيل هو النجم الذي يظهر عقب غروب الشمس، واسمه الشاهد. وقيل هو الثريا، أو زحل. وقيل أيضا هو النجم مطلقا، لأن النجوم كلها ثاقب[٥].

القسم بالنجوم ليس سببا لتعظيمها بل دليل على جلال خالقها:

قال ابن تيمية في قسم الباري بالنجوم: «هو كإقسامه بغير ذلك من مخلوقاته، كما أقسم بالليل والنهار، والشمس والقمر، وغير ذلك: يقتضي تعظيم قدر المقسم به، والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة، والمنفعة للناس، والإنعام عليهم، وغير ذلك؛ ولا يوجب ذلك أن تتعلق القلوب به، أو يظن أنه هو المسعد المنحس، كما لا يظن ذلك في ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، وفي ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾، وفي ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾، وأمثال ذلك»[٦].

وقال ابن القيم في آية ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ واستدلال المنجم بها: «إن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكب وهو قول الأكثرين فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع، فإنه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده، كما أنه وحده المتفرد بخلقها وإبداعها، وما تضمنته من الآيات والعجائب فالإقسام بها

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٥٨.
(٢) التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٢٥٩.
(٣) تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٨٩.
(٤) التحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٦٠.
(٥) التحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠. مفاتيح الغيب، ٣١/ ١٢٧. مفتاح دار السعادة، ص ٥١٣.
(٦) الفتاوى ، ٣٥/ ١٧٧.

أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والدهرية ونوعي المعطلة»[١].

فهذا القسم كقسم الله تعالى بالضحى والفجر والليالي العشر والشفع والوتر واليوم الموعود والنفس والمرسلات والعاصفات والنازعات. .وما نبصره وما لا نبصره من كل غائب عنا وحاضر مما فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزته وحكمته وتنوع خلقه ودلالته على عظمته وكبريائه[٢]:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلا دلالة فيها على ما يدعيه المنجمون من أفعال الكواكب وآثارها على الناس.

البروج والمنازل:

وقد وصف القرآن السماء بأنها ذات أبراج، وذكرها الله سبحانه في مقام تفخيم شأنها والامتنان بها على عباده، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ الحجر ١٦ . وأقسم بها الباري فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾. أول سورة البروج.

وفي تفسير البروج أقوال:

١ ـ البروج هي النجوم العظام، وقيل النجوم مطلقا، سميت بروجا لظهورها وارتفاعها، لأن أصل البروج في اللغة هو الظهور[٣]. والعرب تسمي البناء المرتفع برجا، قال ابن القيم: وهذا قول أكثر السلف[٤].

٢ ـ البروج هي هذه الاثنا عشر برجا المشهورة، أولها الحمل، وآخرها الحوت[٥]. وهذا حكاه الخطيب عن عبد الله بن عباس[٦]. وقال ابن القيم هو قول كثير من

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص٥١٣.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٠.

(٣) مفاتح الغيب، ٣١/ ١١٤، سورة البروج. تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٨١، البروج. الجامع لأحكام القرآن، ٨/١٠، سورة الحجر آية ١٦.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٥.

(٥) مفاتيح الغيب، ٣١/ ١١٤. الجامع لأحكام القرآن، ٨/١٠.

(٦) القول في علم النجوم، ص ١٤٠.

المتأخرين من أهل التفسير[١]. وقيل هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها[٢].

قال الرازي: «وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجيب الحكمة، وذلك لأن سير الشمس فيها، ولا شك أن مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس، فيدل ذلك على أن لها صانعا حكيما»[٣].

٣ ـ البروج منازل القمر، أقسم بها الباري لما في سير القمر وحركته من الآثار العجيبة[٤]. ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ينزلها كل شهر، فإذا سار فيها واحداً واحداً فعاد إلى وضعه الأول، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ يس: ٣٩[٥].

فهذه المنازل هي المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر، وأماراتها أنجم مجتمعة على شكل لا يختلف، وضع لها العرب أسماء خاصة، فأول ليلة من ليالي الهلال للشرطان، ثم العواء، فالسماك الأعزل. وهذه المنازل منقسمة على البروج الاثني عشر التي تحل فيها الشمس في فصول السنة، فلكل برج منها منزلتان وثلث، فالأبراج غير المنازل. وإنما سميت ليالي الشهر القمري بالمنازل، لأنها سموت يلوح للناس القمر كل ليلة في سمت منها، كأنه ينزل بها. فهذا مجاز بالمشابهة[٦]. وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ يونس ٥ .

المطر في حديث النوء.

في حديث لزيد بن خالد الجهني، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ١٩٦، وهو رأي المؤلف.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣١/ ١١٤.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣١/ ١١٤.

(٥) راجع منازل القمر وأسماءها بتفصيل في: القول في علم النجوم، ص١١٣ إلى١٣٩. وهذا التفسير حكاه الخطيب عن ابن عباس.

(٦) التحرير والتنوير، ١١/ ٩٥.

بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب(١).

وقوله (إثر سماء): أي عقب سقوط مطر، والعرب تسمي المطر سماء، لأنه منها نزل، وكل جهة علو تسمى سماء. وقوله (فلما انصرف النبي) معناه: انصرف من صلاته أو من مكانه، والأول أظهر(٢).

وحديث النوء من أصح الأحاديث القدسية التي خرجها الحفاظ. وفيه اختلاف قليل في لفظة النوء، أعني من جهة المعنى.

النوء مفرد أنواء، وأصله في اللغة النهوض بثقل، يقال ناء بكذا أي نهض به متثاقلا. ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، القصص ٧٦، أي لتثقلهم عند النهوض بها(٣). ثم ذهب الناس في تفسيره في الحديث إلى قولين:

١ ـ النوء كوكب، والأنواء ثمانية وعشرون نجما معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها. قالوا: وفي كل ثلاث عشرة ليلة يسقط منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر مقابله في المشرق من ساعته. وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط النجم الساقط ناء الطالع أي نهض، وذلك النهوض هو النوء(٤).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، حديث ٨٤٦. وفي كتاب الاستسقاء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، حديث ١٠٣٨. وفي كتاب المغازي، باب ٣٥، حديث ٤١٤٧. وفي كتاب التوحيد. ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث ١٢٥. وأبو داود في الطب. والنسائي في الصلاة والاستسقاء. وأحمد في مواضع. ورواه أيضا مالك في الموطأ، باب الاستمطار بالنجوم.. وغيرهم كثير، وفي مواضع كثيرة، فإنه من الأحاديث المعروفة.

(٢) انظر: معالم السنن شرح سنن أبي داود، للخطابي، ٤/ ٢١٣. المفهم، ١/ ٢٥٨. الكواكب الدراري، شرح صحيح البخاري، للكرماني٥/ ١٩٤. فتح الباري، ١/ ٢١٩. عمدة القاري، ٦/ ١٣٧. المسوى شرح الموطأ، للدهلوي، ٢/ ٤٢٣. عون المعبود شرح أبي داود، للطيب آبادي، ١٠/ ٤٠١. دليل الفالحين شرح رياض الصالحين، لابن علان، ٤/ ٥٦١. فتح المجيد ٣١٣.

(٣) المفهم، للقرطبي، ١/ ٢٦٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، مادة نوء، ٤/ ١٩٠. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، ٢/ ٥٣. الكواكب الدراري، ٥/ ١٩٥. عمدة القاري، ٦/ ١٣٧. دليل الفالحين، ٤/ ٥٦٢.

وقيل أراد بالنوء الغروب. وهو من الأضداد. قال أبو عبيد: لم نسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع[١]. يعني في الحديث. فيقال للأنجم الساقطة في الغرب الأنواء، وللطالعة في الشرق البوارح[٢].

٢ ـ النوء منزلة، والأنواء هي منازل القمر الثمانية والعشرين[٣]. قال الخطابي: «كانوا يزعمون أن القمر إذا نزل بعض تلك الكواكب مطروا، فأبطل النبي قولهم، وجعل سقوط المطر من فعل الله سبحانه دون فعل غيره»[٤].

ولذلك قال ابن الصلاح: النوء في أصله ليس نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم ينوء نوءا إذا سقط وغاب، وقيل أي نهض وطلع[٥].

وعلى هذا فالنوء وقت وزمان. ولا تخالف كبيرا بين الحديثين، لأن القول الأول نظر إلى النجم الساقط، والآخر نظر إلى زمان السقوط الذي تحدده المنزلة الجديدة التي انتقل إليها الكوكب.

والمقصود أن أهل الجاهلية كان من عادتهم أن يضيفوا المطر إلى الكوكب، ولا ينسبونه إلى الله سبحانه، وهو المنعم عليهم بالغيث والماء، بل قد يظنون أن النجم هو الذي يمطرهم ويسقيهم، على وجه الحقيقة؛ فكانوا إذا سقط نجم وطلع آخر قالوا لا بد أن يكون عند ذلك مطر أو ريح. .فإذا أمطروا قالوا بنوء كذا، أي المطر كان من أجل أن الكوكب ناء، وأنه هو الذي أهاجه، بل هو الذي أوجده واخترعه وأنزله. فكان عندهم مثلا نجم الدبران، وهو كوكب أحمر صغير منير،

---

(١) النهاية، ٤/ ١٩٠. المنهاج، ٢/ ٥٣. والظاهر أن أبا عبيد هنا هو القاضي علي بن الحسين (٣١٩هـ)، له تصانيف. الأعلام، ٥/ ٨٧.

(٢) المنهاج، للنووي، ٢/ ٥٣.

(٣) معالم السنن، ٤/ ٢١٤. النهاية في غريب الحديث، ٤/ ١٩٠. المسوى، ٢/ ٤٢٣. فتح المجيد، ص ٣٠٩.

(٤) معالم السنن، ٤/ ٢١٤، كتاب الطب. أحمد بن إبراهيم الخطابي البستي، برز في فقه الحديث. توفي سنة ٣٨٨هـ. عن معجم المؤلفين، ٢/ ٦١.

(٥) ذكره عنه: النووي في المنهاج، ٢/ ٥٣. والعيني في عمدة القاري، ٦/ ١٣٧. وصديق خان القنوجي في السراج الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ٨/ ٣٨٤. والشيخ ابن علان في دليل الفالحين، ٤/ ٥٦١. وابن الصلاح هو عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، الكردي. عاش بالشام (٦٤٣هـ)، محدث جليل، اشتهر بمقدمته في مصطلح الحديث. الأعلام، ٤/ ٣٦٩.

غير محمود، أما نجم الشعرى فحسن وممطر. فلذلك أمرهم الله عز وجل أن يضيفوا المطر إليه ويُفردوه بالشكر، لأنه هو من خلقه وأنزله، سبحانه[١].

وبهذا فسر بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، الواقعة ٨٢. أي ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: يقول شكركم، ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، ونجم كذا وكذا[٢]. وإلى هذا جنح البخاري[٣]. وقيل التقدير تجعلون شكر رزقكم[٤].

وفائدة الحديث بالنسبة إلى ما نحن فيه، هو أنه ينفي عن الكواكب التأثيرات المزعومة لأهل التنجيم.

الدين وظاهرة الكسوف.

إن التنجيم يرصد كل ما أمكن له من حركات الأفلاك وتغيراتها وأوضاعها. ولذلك لا عجب إن كان رأى أن ظاهرة نادرة ككسوف الشمس ـ أو خسوف القمر ـ[٥]، لها دلالات جمة وآثار على الأرض والناس كثيرة.

ومن وجوه عظمة دين الإسلام أنه بين للناس أن هذه الظاهرة ـ وإن كانت لا تحدث إلا على الندور في الزمان ـ ظاهرة طبيعية، وهي ـ مثل كل شيء في الكون ـ من أمر الله تعالى وحده، ولذلك فلا علاقة لها بحياة البشر وقضاياهم.

وقد قدر الله سبحانه ـ لبيان هذه الأمور ـ وقوع كسوف للشمس في عهد النبي ﷺ، في السنة العاشرة للهجرة[٦]. وكان فرصة أيضا لتعليمنا صلاة خاصة، هي صلاة الكسوف.

---

(١) راجع: المفهم، ١/ ٢٦٠. الكواكب الدراري، ٥/ ١٩٥ (كتاب الأذان)؛ ٦/ ١٢٤ (كتاب الاستسقاء). فتح الباري، ١/ ٢٢٠. عمدة القاري، ٦/ ١٣٧.

(٢) فتح المجيد، ص ٣٠٩. وهذا رأي الأكثر، لأن في رواية لمسلم أن سبب نزول الآية هو قول الناس مطرنا بنوء كذا، في مطر أمطروه.

(٣) لأنه قال: باب قول الله تعالى، (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)، ثم ذكر حديث النوء، وفقه البخاري وآراؤه في تراجمه، كما هو معلوم.

(٤) المفهم، ١/ ٢٦١. المنهاج، ٢/ ٥٤.

(٥) راجع في التصور السائد قديما للكسوف، وهو على العموم سليم: المواقف وشرحها، ٢/ ٤٦١ إلى ٤٦٣. مفتاح دار السعادة، ص ٥٢٧ فما بعدها.

(٦) أثبت الحساب الفلكي اليوم أنه فعلا حدث كسوف في منطقة الحجاز، في الزمن الذي أخبر به الحديث.

روى الأئمة أن الشمس كسفت على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»[١].

وفي رواية ابن عمر أن النبي ﷺ قال: إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا[٢].

وإبراهيم ـ ابن النبي ﷺ ـ ولد لسنة ثمان للهجرة، من أمه مارية القبطية. وكان موته تزامن مع حدوث الكسوف، فظن الناس أن ذلك لعلاقة بين الأمرين[٣].

وفي هذا الحديث إبطال ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من تأثير الكواكب في الأرض[٤]. قال الخطابي: «كانوا في الجاهلية يزعمون أن كسوف الشمس والقمر يوجب حدوث تغييرات في العالم، من موت وضرر ونقص، ونحو ذلك من الأمور، على ما يذهب إليه أهل التنجيم من إعطائها الأحكام وزعمهم أن هذه الأجسام السفلية مربوطة بالنجوم، وأن لها فعلا وتأثيرا فيها، فأعلمهم النبي ﷺ أن الذي كانوا يتوهمونه من ذلك باطل»[٥].

أما الحديث الذي يجعل لكسوف الشمس آثارا في الأرض وفي الحياة البشرية، بحسب الشهر الذي وقع فيه هذا الكسوف، فحديث موضوع[٦].

الكسوف من آيات الله:

ثم بين النبي الكريم أن الشمس والقمر آيتان، فهما «علامتان لقرب القيامة أو لعذاب الله أو لكونهما مسخرتين بقدرة الله تعالى وتحت حكمه»[٧]. قال القرطبي ـ

---

(١) هذا لفظ البخاري في الصحيح عن المغيرة بن شعبة، كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، وهو الباب الأول، حديث ١٠٤٣. وفي الباب نفسه روايات أخرى عن أبي بكرة وأبي مسعود وابن عمر. وقد تقدم تخريجه.

(٢) والأكثر في اللغة أن يقال الكسوف للشمس، والخسوف للقمر، انظر النهاية في غريب الحديث، ٤/ ٢١.

(٣) انظر حول اتحاد القصتين: فتح الباري، ٣/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٤) فتح الباري، ٣/ ٢٢٤.

(٥) أعلام السنن شرح صحيح البخاري، للخطابي، ١/ ٣٥٧.

(٦) راجع: اللآلئ المصنوعة في الأخبار الموضوعة، للسيوطي، ١/ ٨٤.

(٧) الكواكب الدراري، ٦/ ١٢٨.

أبو العباس ـ : « أي دليلان على وجود الحق سبحانه وقهره وكمال الإلهية، وقد خصهما بالذكر لما وقع للناس من أنهما يخسفان لموت عظيم. وهذا إنما صدر عمن لا علم عنده ممن ضعف عقله واختل فهمه. فرد النبي ﷺ عليهم جهالتهم. وتضمن ذلك الرد على من قال بتأثيرات النجوم»[١]. وقال النووي: «قال العلماء: والحكمة في هذا الكلام أن بعض الجاهلية الضلال كانوا يعظمون الشمس والقمر، فبين أنهما آيتان مخلوقتان لله تعالى لا صنع لهما، بل هما كسائر المخلوقات يطرأ عليهما النقص والتغير كغيرهما. وكان بعض الضلال من المنجمين وغيرهم يقول لا ينكسفان إلا لموت عظيم أو نحو ذلك، فبين أن هذا باطل لا يغتر بأقوالهم لاسيما وقد صادف موت إبراهيم رضي الله عنه»[٢].

(لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)، قال الكرماني: «إن قلت ما فائدة هذه اللفظة، إذ لم يقل أحد بأن الانكساف للحياة، لاسيما هنا، إذ السياق إنما هو في موت إبراهيم... قلت: فائدته دفع توهم من يقول قد لا يكون الموت سببا للانكساف، ويكون نقيضه سببا له، فعمم النفي، أي ليس سببه لا الموت ولا الحياة، بل سببه قدرة الله تعالى فقط»[٣]. ونقل أيضا عن بعض العلماء كلا ما آخر: «وقال أبو الطيب: إن قال قائل أليس رؤية الأهلة وحدوث الحر والبرد وكل ما أجرى الله العادة بحدوثه على وتيرة واحدة آيات، فما معنى التخصيص بهما أنهما آيتان من آيات الله. فالجواب أنها كلها آيات لله ودلالة على قدرته غير أنه ﷺ إنما خص أشرفهما بأنهما آيتان، لإخباره لهم عن ربه بأن القيامة تقوم وهما منكسفان، فأمرهم بالتوبة والصلاة ونحوهما خوفا من أن يكون الكسوف لقيام الساعة. قال المهلب: وكان هذا قبل أن يعلمه الله بأشراط الساعة ومقدماتها»[٤].

---

(١) المفهم، ٢/ ٥٥٢. والقرطبي هو أبو العباس أحمد بن عمر، محدث مالكي رحل إلى مصر وتوفي بالإسكندرية (٦٥٦هـ). وهو شيخ القرطبي المفسر. الأعلام، ١/ ١٧٩.

(٢) المنهاج، ٦/ ١٧٨.

(٣) الكواكب الدراري، ٦/ ١٢٨، باب الصلاة في كسوف الشمس. وكذلك قال ابن حجر في فتح الباري، ٣/ ٢٢٦. والكرماني هو محمد بن يوسف البغدادي. شرح المواقف للإيجي، وله حاشية على تفسير البيضاوي. توفي سنة ٧٨٦هـ. عن معجم المؤلفين، ١٢/ ١٢٩.

(٤) الكواكب الدراري، ٦/ ١٣١. والغالب أن يكون المقصود بأبي الطيب: الطبري، الفقيه طاهر بن عبد الله. سمع الحديث، وتولى القضاء. وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ. وهو من كبار الشافعية. شرح مختصر المزني، وكتب في طبقات الشافعية. معجم المؤلفين، ٥/ ٣٧.

=

الكسوف والغيب:

اعتبر علماء الفلك أن الكسوف ظاهرة عادية يمكن توقعها والتنبؤ بها، وذلك بالاستناد على حسابات فلكية معروفة لديهم.

وقد انزعج بعض علمائنا ـ من قديم ـ من هذا القول، ورأوا أن الكسوف ليس ظاهرة عادية أو طبيعية، كحركات القمر ـ مثلا ـ في المنازل المعروفة، أو الشمس في الأبراج الاثني عشر. .ثم إن حدوث الكسوف غيب لا سبيل إلى معرفته مقدما.

كلام ابن العربي:

وهو نموذج لرأي هذه الطائفة الأولى: «كسوف الشمس والقمر أمر يخلقه الله خلاف العادة لما يشاء من معنى فتكون آية. وقالت طائفة هو أمر معقول من جهة الحساب، فأما كسوف الشمس فإن القمر يحول بينها وبين النظر، وأما كسوف القمر فإن الشمس تخلع نورها عليه، فإذا وقع في ظل الأرض لم يكن له نور، وبحسب ما تكون المقابلة ويكون الدخول في ظل الأرض يكون الكسوف من كل أو بعض، وهذا أمر يدل عليه الحساب ويصدق فيه البرهان. قلنا :

كذبتم وبيت الله لا تعرفونها متى حاص حجراها وظل فؤادها

قد قلتم بالبرهان إن الشمس أضعاف القمر في الجرمية بالعقد، فكيف يحجب الصغير الكبير إذا قابله ولا يأخذ منه عشره. وجواب ثان وذلك أن الشمس إذا كانت تغطيه بنورها فكيف يحجب نورها ونوره من نورها، هذا خباط. وجواب ثالث إذا كان نور القمر قليلاً ونور الشمس كثيرًا فكيف يظلم الكثير بالقليل لاسيما وهو من جنسه أو من بعضه وهو جواب رابع. جواب خامس قلتم إن الشمس أكبر من الأرض بسبعين ضعفاً أو نحوها، وقلتم إن القمر أكبر منها بأقل من ذلك فكيف يقع الأعظم في ظل الأصغر، وكيف يحجب الأرض نور الشمس وهي في زاوية منها. جواب سادس وذلك أنه إن كان كما قالوا إن الشمس تخلع عن القمر نورها فإذا كسفته رأيناه مظلما فهذا يدل على أنه جرم مظلم والنور عرض يعلوه، وعمدتهم أن القمر والشمس نوران محضان لا خلط فيهما، والعيان على قولهم يكذبه برؤية

= أما المهلب، فهو أبو القاسم بن أبي صفرة الأندلسي، أحد الشراح المتقدمين لصحيح البخاري، محدث وفقيه من أهل ألمرية، توفي سنة ٤٣٥هـ. معجم المؤلفين، ١٣/ ٣١.

جرمه أسود عند الكسوف. جواب سابع وهو الذي يستقيم وذلك أن الشمس لها فلك ومجرى والقمر له فلك ومجرى، ولا خلاف أن واحدا لا يعدو مجراه كل يوم إلى مثله من العام، فيجتمعان ويتقابلان، ولو كان الكسوف لوقوعه في ظل الأرض في وقت لكان ذلك الوقت محدودا معلوماً، لأن المجرى بينهما محدودا معلوما فلما كان يأتي في الأوقات المختلفة والجري واحد والحسبان واحد، علم قطعا فساد قولهم هذا، وأنت ترى القمر مثلثا ومنصفا وهو مع الشمس في الأفق الأعلى والأرض تحتهما، فعلم قطعا أن هذا تخليط لا يقدر له قدر ولا يقبل لقائله عذر. فإن قيل ولم يصدقون في استخراجه قلنا قال الله تعالى ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وهؤلاء الذين يصدقون في استخراج الغيب من الكهان في ذلك حجة له في التبري من البهتان»[١].

ومال إلى هذا الرأي ـ أعني رد قول أهل الهيئة ـ جماعة، منهم: أبو العباس القرطبي، وابن حجر[٢]. وأضاف الحافظ أن في بعض الروايات الصحيحة ـ كما سيأتي ـ عن النبي ﷺ أن الله تعالى يخوف بالكسوف والخسوف عباده. قال:

وهذا «فيه رد على من يزعم من أهل الهيئة أن الكسوف أمر عادي لا يتأخر ولا يتقدم، إذ لو كان كما يقولون لم يكن في ذلك تخويف ويصير بمنزلة الجزر والمد في البحر، وقد رد ذلك عليهم ابن العربي وغير واحد من أهل العلم بما في حديث أبي موسى الآتي حيث قال: (فقام فزعا يخشى أن تكون الساعة) قالوا: فلو كان الكسوف بالحساب لم يقع الفزع، ولو كان بالحساب لم يكن للأمر بالعتق والصدقة والصلاة والذكر معنى، فإن ظاهر الأحاديث أن ذلك يفيد التخويف، وأن كل ما ذكر من أنواع الطاعة يرجى أن يدفع به ما يخشى من أثر ذلك الكسوف»[٣].

---

(١) عارضة الأحوذي، ٣/ ٣٧ إلى ٤١، كتاب الجمعة، باب ٤٤، حديث ٥٦٠. انظر صورة الكسوف التي ألحقتها بهذا المبحث فهي كفيلة بالرد على كثير من اعتراضات ابن العربي، وإنما ذكرتها لعلاقتها بما بقي من هذا المبحث، وليس لأحد أن يتمسك بها اليوم، بعد أن وصل العلم إلى ما وصل إليه من الكشف والتقدم. وإذا اختار أحد أن يقول إن الكسوف ظاهرة غير طبيعية فليبحث عن أدلة أخرى.

(٢) المفهم، ٢/ ٥٥٢. فتح الباري، ٣/ ٢٣٦.

(٣) فتح الباري، ٣/ ٢٣٦.

رأي ابن تيمية وابن دقيق العيد:

لكن علماء آخرين لم يروا ـ ألبتة ـ إشكالاً فيما يقرره علم الهيئة، منهم ابن تيمية، قال: «الخسوف والكسوف لهما أوقات مقدرة، كما لطلوع الهلال وقت مقدر، وذلك ما أجرى الله عادته بالليل والنهار، والشتاء والصيف، وسائر ما يتبع جريان الشمس والقمر. . .وكما أن العادة التي أجراها الله تعالى أن الهلال لا يستهل إلا ليلة ثلاثين من الشهر، أو ليلة إحدى وثلاثين. . .فكذلك أجرى الله العادة أن الشمس لا تكسف إلا وقت الاستسرار، وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار، ووقت إبداره هي الليالي البيض التي يستحب صيام أيامها: ليلة الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر. فالقمر لا يخسف إلا في هذه الليالي. . .وللشمس والقمر ليالي معتادة، من عرفها عرف الكسوف والخسوف، كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع في الليلة الفلانية أو التي قبلها. لكن العلم بالعادة في الهلال علم عام، يشترك فيه جميع الناس. وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما، وليس خبر الحاسب بذلك من باب الغيب. . . إذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك فلا يكادون يخطئون. . .»[1].

(١) الفتاوى، ٢٤/ ٢٥٤ إلى ٢٥٨.

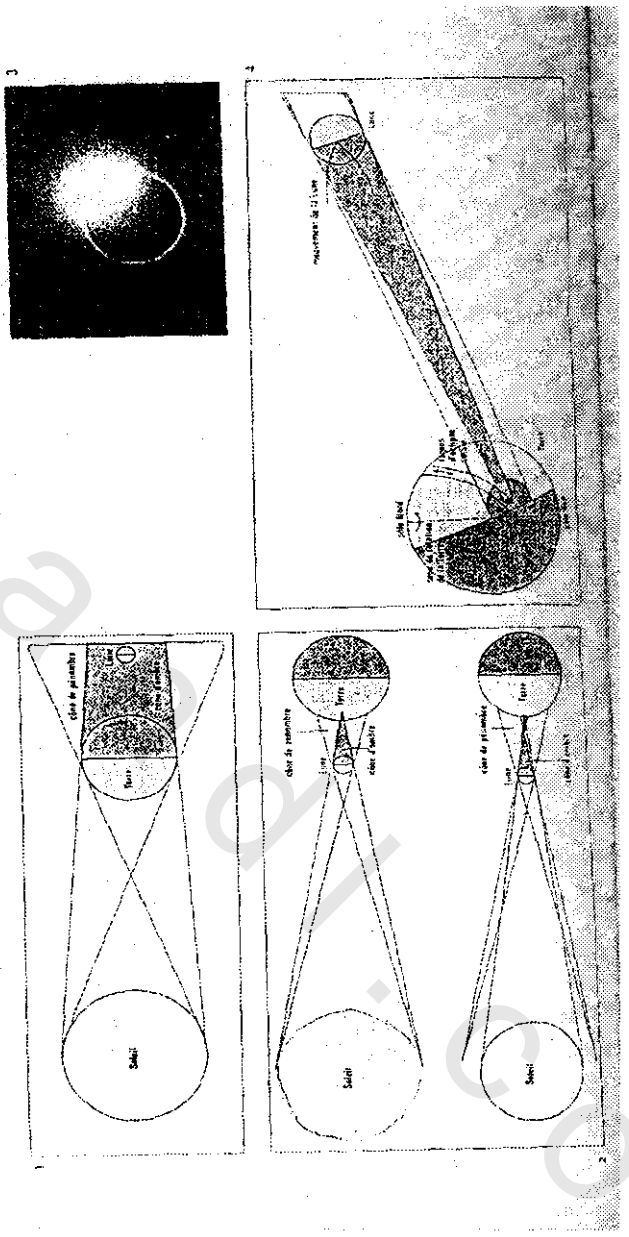

حور الكسوف

(عن موسوعة pha)

obeikandl.com

ولابن دقيق العيد كلام يتوافق مع هذا، قال: «قد ذكر أصحاب الحساب لكسوف الشمس والقمر أسبابا عادية، وربما يعتقد أن ذلك ينافي قوله عليه السلام يخوف الله بهما عباده. وهذا الاعتقاد فاسد لأن لله تعالى أفعالا على حسب الأسباب العادية وأفعالا خارجة عن تلك الأسباب. فإن قدرته تعالى حاكمة على كل سبب ومسبب، فيقتطع ما شاء من الأسباب والمسببات بعضها عن بعض. فإذا كان ذلك كذلك فأصحاب المراقبة لله تعالى ولأفعاله الذين عقدوا أبصار قلوبهم بوحدانيته وعموم قدرته على خرق العادة واقتطاع المسببات عن أسبابها إذا وقع شيء غريب حدث عندهم الخوف لقوة اعتقادهم في فعل الله تعالى ما يشاء، وذلك لا يمنع أن يكون ثمة أسباب تجري عليها العادة إلى أن يشاء الله تعالى خرقها. ولهذا كان النبي ﷺ عند اشتداد هبوب الريح يتغير ويدخل ويخرج خشية أن تكون كريح عاد وإن كان هبوب الريح موجودا في العادة. والمقصود بهذا الكلام أن تعلم أن ما ذكره أهل الحساب من سبب الكسوف لا ينافي كون ذلك مخوفا لعباد الله تعالى، وإنما قال النبي ﷺ هذا الكلام لأن الكسوف كان عند موت ابنه إبراهيم، فقيل إنها كسفت لموت إبراهيم فرد النبي ﷺ ذلك»[١].

الكسوف والتنجيم:

وهذا الفرق بين التوقع الفلكي القائم على الحساب وبين التنجيم مما يخفى على كثير من العامة، خصوصا في القديم، قال ابن تيمية: «من هنا صار بعض العامة إذا رأى المنجم قد أصاب في خبره عن الكسوف المستقبل يظن أن خبره عن الحوادث من هذا النوع»[٢]. فالتنبؤ بالكسوف عمل قائم على الحساب الرياضي والفلكي، والتنبؤ به لا يعني صحة التنبؤات التنجيمية التي لا أساس لها[٣].

فالكسوف أمر الله سبحانه وآية من آياته التي لا يحصيها سواه، كالمطر والنبات

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨، وهو أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي، شهر بابن دقيق العيد. عالم مشارك في أنواع من العلوم. درس الفقهين المالكي والشافعي، فينسب إليهما معا. ولي قضاء مصر. من كتبه: الاقتراح في علم الحديث. شرح مختصر ابن الحاجب الفقهي، لم يكمل. ديوان خطب.. معجم المؤلفين ١١/ ٧٠.

(٢) الفتاوى، ٣٥/ ١٧٥.

(٣) (ملخص رسالة ابن سينا في إبطال التنجيم). A.F. Mehren: Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p15

والجبال. .وسائر المخلوقات آيات لله تدل عليه وعلى جلاله. .والشمس والقمر آيتان لا ربان ولا إلهان، ولا ينفعان ولا يضران[١]. . قال ابن القيم: «هؤلاء الأحكاميين يموهون على الجهال بأمر الكسوف، ويوهمونهم أن قضاياهم وأحكامهم النجومية من السعد والنحس والظفر والغلبة وغيرها هي من جنس الحكم بالكسوف، فيصدق بذلك الأغمار والرعاع، ولا يعلمون أن الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما، وذلك أمر قد أجرى الله تعالى العادة المطردة به، كما أجراها في الإبدار والسرار والهلال، فمن علم ما ذكرناه في هذا الفصل علم وقت الكسوف ودوامه ومقداره وسببه. وأما أنه يقتضي من التأثيرات في الخير والشر والسعد والنحس والإماتة والإحياء، وكذا وكذا مما يحكم به المنجمون، فقول على الله وعلى خلقه بما لا يعلمون»[٢].

ولذلك قال النبي ﷺ: لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. ولهذا أحد معنيين:

الأول: إن موت الميت وحياته لا يكون سببا في انكسافهما، كما اعتقد ذلك بعض العرب، فأخبر النبي الكريم أن موت الإنسان أو حياته لا يؤثر في كسوف الشمس والقمر ألبتة.

الثاني: لا يحصل عند انكسافهما موت ولا حياة، ولا يتسببان فيه[٣].

وأي ذلك كان يبطل التنجيم، لأنه يرد أهم أسسه: وجود علاقة بين أوضاع الكواكب وحوادث الأرض الإنسانية.

التخويف بالكسوف ووجهه:

لما أمر النبي ﷺ بالصلاة عند كسوف الشمس والقمر، احتاج العلماء إلى تعليل هذا القران بين الأمرين، فقال الخطابي: «أمر عند كسوفهما أن يفزع إلى الصلاة والسجود لله الذي يستحق العبادة والسجود دونهما، إبطالا لقول الجهال الذين يعبدونها وإفسادا لمذاهبهم في عبادتهما، والله أعلم. وقد يحتمل أن يكون المعنى في الأمر بالصلاة عند الكسوف الفزع إلى الله عز وجل، والتضرع له في دفع

(١) مفتاح دار السعادة، ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٣٠.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٢٧.

الضرر والآفات التي تتوهمها الأنفس، وتتحدث بها الخواطر، تحقيقا لإضافة الحوادث كلها إلى الله تعالى، ونفيا لها عن الشمس والقمر وإبطالا لأحكامها»[١].

لكن في بعض طرق الحديث أن حالة من الفزع والقلق تملكت النبي الكريم، ولذلك فإن التخويف بالكسوف أمر ثابت، وهو ما صرح به النبي ﷺ حين قال: يخوف بها، أو بهما ـ أي الشمس والقمر ـ ، عباده. وقد أخذ البخاري هذه الأحاديث في الكسوف وبوبها هكذا: (باب قول النبي ﷺ: يخوف الله عباده بالكسوف. قاله أبو موسى عن النبي ﷺ)[٢]. هكذا بصيغة الجزم.

وقد فسر العلماء هذا التخويف بطريقين تبعا لاختلافهم السابق في أمر الكسوف ما هو:

١ ـ فعلى رأي ابن العربي ومن ذهب مذهبه وجه التخويف أن «الشمس والقمر إذا أدركه التغير مع علو شأنه وارتفاع مكانه فكل شيء دونه أولى بذلك منه أو مثله، وفي الذي يصيبه من التغيير اليسير الآن علامة وإنذار بما يصيبه من الإفساد الكلي»[٣].

وقال القرطبي: «كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة الله وتمام قهره واستغنائه وعدم مبالاته، وذلك كله يوجب عند العلماء بالله خوفه وخشيته، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وخص هنا خسوفهما بالتخويف، لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان. والنادر العظيم مخوف موجع بخلاف ما يكثر وقوعه، فإنه لا يحصل منه ذلك غالبا»[٤].

ويجوز أيضا أن يكون وجه التخويف بالكسوف احتمال أن يكون مقدمة لأشراط الساعة. وهذا الوجه يصلح أيضا لأصحاب الرأي الثاني، كما ستراه الآن.

---

(١) أعلام السنن، ١/ ٣٧٦.

(٢) هو الباب السادس في كتاب الكسوف من الجامع الصحيح، وحديث أبي موسى الأشعري وصله ابن حجر في الفتح، ٣/ ٢٣٥.

(٣) عارضة الأحوذي ، ٣/ ٤١.

(٤) المفهم، ٢/ ٥٥٣. الآية ٢٨ من سورة فاطر. ومعنى : عدم مبالاته، كقوله تعالى: (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، ولا يخاف عقباها). آخر سورة الشمس.

٢ ـ أما على مذهب من يرى أن الكسوف ظاهرة عادية، قابلة للحساب والتوقع، فقد فسر التخويف بوجوه، منها: يخوف الله سبحانه بها عباده الذين لا يعقلون من العوام[١].

ومنها أن الله تعالى يجوز أن يقدر كسوفا عاديا، ويكون مع ذلك من أشراط الساعة، فخاف النبي ﷺ أن يكون الكسوف الحادث هو هذا. قال الخطابي: الشمس والقمر «آيتان من آيات الله الدالة على قرب زمان الساعة، وأمارتان من أماراتها وأشراطها المتقدمة لها، كما قد قال مخبرا عن خسوفهما في يوم القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وقد يكون ذلك أيضا أنه كان يخوف بها الناس ليفزعوا إلى التوبة والاستغفار من الزلل والخطايا، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. ويؤكد ذلك حديث أبي بكرة»[٢]. وقال أبو العباس: «نقول يحصل بهما تخويف العقلاء من وجوه متعددة. أوضحها أن ذلك مذكر بالكسوفات التي تكون بين يدي الساعة، ويمكن أن يكون ذلك الكسوف منها، ولذلك قام ﷺ فزعا يخشى أن تقوم الساعة. وكيف لا، وقد قال الله عز وجل: ﴿﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾. قال أهل التفسير: جمع بينهما في إذهاب نورهما»[٣].

ويرى ابن تيمية أن احتمال وجود ضرر على الناس عند الكسوف أمر وارد، إلا أنه لا يقع بالضرورة عند كل كسوف: «(ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده). وهذا بيان منه ﷺ أنهما سبب لنزول عذاب بالناس، فإن الله إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه، وعصوا رسله، وإنما يخاف الناس مما يضرهم، فلولا إمكان حصول الضرر بالناس عند الخسوف ما كان ذلك تخويفا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، وأمر النبي ﷺ بما يزيل الخوف، أمر بالصلاة والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والعتق، حتى يكشف ما بالناس، وصلى بالمسلمين في الكسوف صلاة طويلة»[٤]. وقال: «فإذا كان

---

(١) عارضة الأحوذي، ٣/ ٤١.

(٢) أعلام السنن، ١/ ٣٧٦. الآيات من سورة القيامة، ٧ إلى ٩. والأخرى من الإسراء ٥٩.

(٣) المفهم، ٢/ ٥٥٣.

(٤) الفتاوى، ٢٤/ ٢٥٩. والآية ٥٩ من سورة الإسراء.

الكسوف له أجل مسمى لم يناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله سببا لما يقضيه من عذاب وغيره لمن يعذب الله في ذلك الوقت، أو لغيره ممن ينزل الله به ذلك، كما أن تعذيب الله لمن عذبه بالريح الشديدة الباردة كقوم عاد كانت في الوقت المناسب، وهو آخر الشتاء، كما قد ذكر ذلك أهل التفسير وقصص الأنبياء. وكان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة ـ وهو السحاب الذي يخال فيه المطر ـ أقبل وأدبر، وتغير وجهه، فقالت له عائشة: إن الناس إذا رأوا مخيلة استبشروا؟ فقال: يا عائشة! وما يؤمنني؟ قد رأى قوم عاد العذاب عارضا مستقبل أوديتهم، فقالوا ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وكذلك الأوقات التي ينزل الله فيها الرحمة، كالعشر الآخرة من رمضان، والأول من ذي الحجة، وكجوف الليل؛ وغير ذلك هي أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر وينزل فيها من الرحمة ما لا ينزل في غيرها»[(١)].

إذن يمكن «أن الله سبحانه يحدث عند الكسوفين من أقضيته وأقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم، ويجعل الكسوف سببا لذلك. ولهذا أمر النبي(عند الكسوف بالفزع إلى ذكر الله والصلاة والعتاقة والصدقة والصيام، لأن هذه الأشياء تدفع موجب الكسف الذي جعله الله سببا لما جعله، فلولا انعقاد سبب التخويف لما أمر بدفع موجبه بهذه العبادات»[(٢)].

رواية التجلي:

وفي أحاديث الكسوف رواية للنعمان بن بشير رضي الله عنه تكشف عن أشياء تصاحب هذه الظاهرة أو تتسبب فيها، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، وإن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له[(٣)].

---

(١) الفتاوى، ٣٥/١٧٦. والحديث من رواية عائشة، اختصره هناك ابن تيمية. وهو عند البخاري في كتاب التفسير ، السورة رقم ٤٦. ورواه مسلم في باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، من كتاب الاستسقاء. ذكره مسلم بروايتين. ورواه أحمد في مسند عائشة في مواضع. والآيات من سورة الإسراء ٥٩. الأحقاف ٢٤.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٠.

(٣) رواه أحمد والنسائي في الكسوف وابن ماجه في كتاب الإقامة. وصححه الحاكم وابن خزيمة، كما في فتح الباري، ٣/ ٢٣٧، كتاب الكسوف، حديثا ١٠٤٩، ١٠٥٠.

وأهل العلم في هذا الخبر على رأيين:

الأول: رده وعدم تصحيحه. وذلك لأحد سببين:

١- إما لمخالفته للأصول، وهذا رأي أبي حامد الغزالي، قال: إن هذه الزيادة لم يصح نقلها فيجب تكذيب ناقلها، وإنما المروي ما ذكرنا، يعني الذي ليس فيه هذه الزيادة. قال: ولو كان صحيحا لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية لا تصادم أصلا من أصول الشريعة، وكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تتبين في الوضوح إلى هذا الحد[١]. وهو يعني بالأمور القطعية ما يثبته علم الفلك وحسابه في تفسير الكسوف، وكذا المعاينة، فإننا نرى القمر يتوسط ما بين الأرض والشمس، ولذلك رد ابن حجر التفسير الفلكي للكسوف بهذه الزيادة، من طريق النعمان بن بشير[٢].

٢- وإما لكونه مدرجا من كلام الراوي. قال ابن القيم: ليس الأمر في هذه الزيادة كما قال أبو حامد، فإن إسنادها لا مطعن فيه، ورواتها كلهم ثقات حفاظ، لكن لعل هذه اللفظة مدرجة في الحديث من كلام بعض الرواة، ولهذا لا توجد في سائر أحاديث الكسوف، فقد رواها عن النبي ﷺ بضعة عشر صحابيا، ولم يذكر أحد منهم هذه الزيادة. فمن هنا نخاف أن تكون أدرجت في الحديث إدراجا، وليست من لفظ رسول الله ﷺ[٣].

الثاني: قبوله وتصحيحه. وأيده ابن حجر بما رواه عن طاوس أنه نظر إلى الشمس وقد انكسفت. وقال: هي أخوف لله منا. فبكى حتى كاد أن يموت[٤]. وقال ابن تيمية: «قد طعن في هذا الحديث أبو حامد ونحوه، وردوا ذلك، لا من جهة علم الحديث، فإنهم قليلو المعرفة به. .ولكن من جهة كونهم اعتقدوا أن سبب

---

(١) نقله ابن حجر في فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. وابن القيم في مفتاح دار السعادة ، ص ٥٣٤. والغزالي هو محمد بن محمد الطوسي، المتكلم الفقيه المتصوف، أصله من خراسان، توفي عام ٥٠٥هـ . انظر: الأعلام، ٧/ ٢٤٧.

(٢) فتح الباري، ٣/ ٢٣٧.

(٣) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٣٤.

(٤) فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. وطاوس هو ابن كيسان اليمني، الفارسي الأصل. من أجل التابعين، توفي سنة ١٠٦هـ . راجع سير أعلام النبلاء، ٥/ ٣٨.

الكسوف إذا كان ـ مثلا ـ كون القمر إذا حاذاها منع نورها أن يصل إلى الأرض، لم يجز أن يعلل ذلك بالتجلي»[١].

وقال ابن بزيزة عن الغزالي: «هذا عجب منه، كيف يسلم دعوى الفلاسفة ويزعم أنها لا تصادم الشريعة مع أنها مبنية على أن العالم كري الشكل، وظاهر الشرع يعطي خلاف ذلك. والثابت من قواعد الشريعة أن الكسوف أثر الإرادة القديمة وفعل الفاعل المختار، فيخلق في هذين الجرمين النور متى شاء والظلمة متى شاء من غير توقف على سبب أو ربط باقتران. والحديث الذي رده الغزالي قد أثبته غير واحد من أهل العلم»[٢].

وهؤلاء الذين أثبتوا هذه الزيادة احتاجوا إلى تفسيرها:

فقال ابن بزيزة: الحديث ثابت من جهة المعنى أيضا، يعني إضافة إلى ثبوته من حيث السند، وذلك لأن النورية والإضاءة من عالم الجمال الحسي، فإذا تجلت صفة الجلال انطمست الأنوار لهيبته. ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[٣]. فالمعنى أن تجلي الله تعالى بنوره يطمس نور الكوكب فيظلم.

رأيي في موضوع الكسوف:

١ ـ مسألة دلالته على التنجيم: فأما هذه فالحديث فيها واضح وصريح، فلا تعلق للمنجمين به، بل هو حجة عليهم.

٢ ـ ظاهرة الكسوف: وهذه ظاهرة طبيعية وعادية، تخضع للحساب والتوقع، تماما كما قال ابن دقيق العيد وابن تيمية وتلميذه ابن القيم. .وقد تقدم علم الفلك كثيرا في القرون الأخيرة، واكتشف أشياء لا حد لها مما يخص الكواكب

---

(١) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/ ١٧٦ ـ ١٧٧. أي إذا حاذى القمر الشمس، منع نور الشمس أن يصل إلى الأرض.

(٢) فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. ومقصوده بدعوى الفلاسفة تفسيرهم للكسوف بناء على مقررات علم الفلك.
وابن بزيزة هو : أبو محمد عبد العزيز بن إبراهيم القرشي، التونسي. فقيه ومفسر . توفي سنة ٦٦٢هـ . من تآليفه: شرح التلقين للمازري. شرح الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي. الإسعاد في شرح الإرشاد. تفسير القرآن. عن معجم المؤلفين، ٥/ ٢٣٩.

(٣) عن فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. والآية من سورة الأعراف، ١٤٣. ولابن القيم تفسير آخر فيه بعض التكلف إن شئت راجعه في مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥.

والأجرام السماوية، حتى إن المعرفة الفلكية في العصر الوسيط لا تعد شيئا بجانب ما عندنا منها الآن.

ولهذا لا يجوز اليوم إنكار التفسير الفلكي للكسوف، وقول الشيخ ابن باز ـ رحمه الله تعالى ـ : «لا يلزم أن يصيب أهل الحساب في كل ما يقولون، بل قد يخطئون في حسابهم، فلا ينبغي أن يصدقوا ولا أن يكذبوا»[١]... هذا بحسب علمه. أما الثابت اليوم في علم الفلك فهو أن قسما هاما من حساباته وتوقعاته صحيحة وصادقة بنسبة ١٠٠٪، ولذلك ينبغي تصديقهم فيها، لا التوقف في شأنها.

٣ ـ مسألة التخويف بالكسوف: وكون الكسوف ظاهرة طبيعية لا ينفي أن الله تعالى يخوف به عباده، وأن أشياء تصاحب الظاهرة يمكن أن تكون سببا للرهبة فعلا.

ولذلك قال بعض العلماء ـ كما تقدم ـ إن النبي ﷺ ما خوف من الكسوف، وما انزعج هو نفسه منه، إلا لأن هذا الوضع السماوي يمكن أن يحمل ضررا أو عذابا. وهنا ـ بخصوص كيفية هذا الضرر ـ رأيان أو احتمالان بحسب ما نعتقد في قضية السببية:

أ ـ فإذا قلنا بسببية حقيقية للأشياء، يكون للكسوف ـ أي للوضع الخاص المتركب من الشمس والقمر والأرض ـ تأثيره. وهذا من باب العلية المجعولة. أعني كما يكون للشمس فعل التسخين، وللقمر فعل المد والجزر، وللنار فعل الإحراق، وللماء فعل الإرواء، ولسائر الأشياء آثارها المشاهدة. وهو بحسب القرائن ـ في الأحاديث ـ تأثير ضار.

ب ـ وإذا قلنا بسببية عادية، كان المعنى أن الله تعالى يخلق ضرراً أو عذاباً، حين يكون الكسوف، من غير علاقة بين الأمرين سوى القران العادي فقط.

والتخويف يحصل بظواهر استثنائية، وحتى بالظواهر الطبيعية، فالإعصار والرياح الشديدة والزلازل وهيجان البحر.. كل ذلك معتاد، وهو مخوف فعلاً[٢].

---

(١) ذكره بهامش فتح الباري، ٣/ ٢٣٧، رغم أنه يرى في الموضوع رأي ابن تيمية وابن القيم.وعبد العزيز بن باز من كبار علماء السعودية في العقدين الأخيرين، وشغل مناصب متنوعة في التعليم العالي والإفتاء. له رسائل وفتاوى منشورة. كان ابن باز رحمه الله ذا فضل ودين وعلم، توفي سنة ١٩٩٩م.

(٢) اقرأ الوصف الدقيق والرهيب لتقلب الجو في أعالي بحار إيسلندا، فإذا البحر غير البحر، والسماء غير السماء.. في رواية بيير لوطي: صياد إيسلندا. وهي من أفضل الروايات العالمية لأدب البحر. فهذا الوصف يملأ قلب القارئ بالرهبة حتى وهو راقد في فراشه يقرأ.

إذن كل ما في الأمر أننا لم نصل بعد إلى معرفة هذا الضرر وتحديده. وربما سينجح العلم في الكشف عن بعضه، في مقبلات الأيام.

٤ ـ رواية التجلي: إن مقتضى قواعد الحديث قبول زيادة الثقة، قالوا من علم حجة على من لم يعلم. لكن انفراد هذا الطريق ـ إلى ابن بشير ـ بهذه الزيادة من دون سائر الطرق الأخرى التي جاوزت العشرة.. يوجب شيئا من التردد في قبولها. ولمثل هذا تردد العلماء في قبول الحديث الفرد الغريب الذي لا يعرف إلا من وجه واحد، ولو صح سنداً[١]. فلعل تخوف ابن القيم في محله هنا.

لكنني ـ مع ميلي للتوقف في أمر هذه الزيادة ـ أقول بأن للكسوف جانباً غيبياً ثابتاً. ففي الكون سببيات ظاهرة وأخرى خفية تعمل بالتوازي، وبشكل لا يمكن لنا أن ندركه، فكأن للعالم ظاهرا وباطنا. وما يجري تحت أنظارنا له وجه آخر، في عالم آخر. وقد رأينا في موضوع السببية ـ في الكتاب الذي خصصته له ـ مدى غموضه وتعقده.

لهذا لا أرى أي تناقض على الإطلاق بين ذين الأمرين: الكسوف ظاهرة عادية حسابية، ولا يمكن أن نكابر العلم في قواعده الثابتة واستنتاجاته الصائبة. وكل من درس العلوم البحتة ولو لفترة قصيرة من حياته ـ كما فعل كاتب هذه السطور ـ يحصل له ما يسميه علماؤنا بالعلم «الضروري» ببعض مقررات العلوم، ومنها التفسير الفلكي للكسوف.

وكذلك لا يمكن أن نكابر النصوص الشرعية الواضحة، التي تكشف عن أشياء تقع في الظواهر المادية، لا يمكن للعقل البشري ولا للحساب ولا للتجربة أن يصل إليها.

ولذلك قال ابن تيمية إن التجلي المذكور في الحديث لا ينافي السبب المذكور في الهيئة[٢]. فوجود ناحية غيبية في الكسوف أمر ثابت بظاهر الأحاديث

---

(١) وهذه الزيادة هي من الغريب متنا وإسنادا، وهو ـ كما قال ابن الصلاح ـ الحديث الذي تفرد برواية متنه راو واحد. وأكثر الغرائب لا تصح، ولذا كان الإمام أحمد يقول: لاتكتبوا هذه الأحاديث الغرائب فإنها مناكير، وعامتها عن الضعفاء. كذا بمقدمة ابن الصلاح، بتعليق البلقيني، ص ٣٩٥. وانظر فيه تقسيم ابن الصلاح زيادة الثقة إلى ثلاثة أقسام، وتردده في الثالث. ص ١٨٦ ـ ١٨٧. وقارن ذلك ببحثه في الخبر الشاذ، ص ١٧٣ فما بعدها.

(٢) الفتاوي، ٣٥/ ١٧٧.

الصحيحة، وفيها فزع النبي ﷺ لما وقع الكسوف، وأمره بالصلاة والصدقة والذكر، وإخباره عن ربه تعالى أنه يرهب عباده بهذه الظاهرة.

هل يستطيع أحد أن ينفي احتمال أن تكون للشمس والقمر صلاة خاصة وسجود خاص، في وضع خاص، وزمن خاص، هو حالة الكسوف. وما المانع أن يتجلى الله سبحانه للكوكبين في ذلك الزمان، كما يدنو ربنا عز وجل من أهل الموقف عشية عرفة، وكما ينزل سبحانه ـ أو تنزل رحمته، على الخلاف المعروف ـ إلى السماء الدنيا آخر الليل، وكما تجلى جل وعلا للجبل فصار ترابا؟ ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

(١) اقتباس من آية البقرة ، ٣٢.